محاضرات في الرواية الجزائرية

ماستر2 أدب جزائري..إعداد أستاذ المادة أ.د سعيد خليفي

المحاضرة الأولى:

إن مما جاء في كتب مؤرخي الآداب العالمية القدامى والمحدثين أن أقدم نص روائي في تاريخ الإنسانية هو رواية الحمار الذهبي للفيلسوف والأسطورة الجزائري المولد والمكان لوكيوس أبوليوس..

1 . لوكيوس أبوليوس: ولد حوالي عام 125م، في مدينة مادور، والتي يطلق عليها اليوم مداوروش في ولاية سوق أهراس بأقصى الشرق الجزائري، كان يسمي نفسه في مخطوطاته أحيانا أبوليوس المادوري الأفلاطوني والفيلسوف الأفلاطوني أحيانا أخرى، لوشيوس أو لوسيوس أو لوكيوس أبوليوس، وبالأمازيغية أفولاي، كاتب لاتيني وخطيب أمازيغي نوميدي وفيلسوف وعا لم طبيعي وكاتب أخلاقي وروائي ومسرحي وملحمي وشاعر غنائي، يعتبر صاحب أول رواية في التاريخ ، كتب رواية (التحولات) أو (التغيّرات) باللغة اللاتينية القديمة، وهي الرواية الوحيدة بتلك اللغة التي لها نسخة محفوظة بحالة سليمة، وُيطلق على الرواية أيضًا (الحمار الذهبي)، وقد جاءت في أحد عشر جزءًا، بأسلوب طغى عليه التعقيد والمحسنات اللفظية، وتتعرّض لمغامرات شاب يُدْعَى لوسيوس أو لوكيوس، شاءت الصدف أن يُمسخ حمارًا، فصار يتنقَّل من مكان إلى مكان، وهو يُمْعِن النظر في غباء البشر وقسوتهم، وأخيرًا تنجح الآلهة المصرية إيزيس في إعادته إلى هيئته البشرية، وتحتوي الرواية على العديد من الحكايات القصيرة، تتناول بعض كتاباته المحفوظة الأخرى السحر والخطابة والفلسفة، ويعد كتابه الحمار الذهبي أقدم نص روائي مكتوب في تاريخ الرواية الإنسانية، وبين عامي 143م حتى 150م سافر إلى روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية وزار أيضا آسيا الصغرى وبلاد المشرق والإسكندرية في مصر، ثم استقرّ أبوليوس في قرطاج متدرّجاً في الكهنوت، حتى سُمي كاهناً أكبر للمدينة وراعياً لمجلس الولاية، ومسؤولاً عن إقامة الشعائر والطقوس العامة، وكان أبوليوس إلى جانب معرفته باللغة القرطاجية يكتب أو يقف خطيباً باللغتين الإغريقية واللاتينية، بنفس الإقبال والوثوق وبنفس الجد وبنفس الطراز والأسلوب، وقد انعزل أبوليوس عن الحياة العامة منذ 164، ولا تُعرف نهايته على وجه التحديد، إلا أن أغلب الدراسات تقول إنه توفي سنة 180 م.

المحاضرة الثانية:

2 . رواية (الحمار الذهبي): رواية كوميدية للوكيوس أبوليوس تعدُّ أول رواية في تاريخ الإنسانية وصلت كاملة، متكونة من أحد عشر كتابا (فصلا)، وتحكي بشكل أساسي قصة إنسان يهتم بالسحر، ويحب أن يتحول إلى طير، ولكنه يتحول إلى حمار، وبالإضافة إلى الحدث الرئيسي، تحتوي الرواية بين طياتها قصصا تطول وتقصر، ليست على علاقة وطيدة بالنص الأصلي، وعددها سبع عشرة قصة، بعضها شهدها البطل بنفسه، والبعض الآخر سمعها...

وتبدأ أحداث هذه رواية (الحمار الذهبي) عندما يرغب البطل لوكيوس، ويأخذه الفضول في التعرف على القوة السحرية الغامضة التي تحقق التحول من كائن إلى كائن آخر، فأخذ يتقرب من الخادمة لبلوغ هذا الغرض، وفي يوم من الأيام ألحَّ عليها أن تمكنه من رؤية سيدتها وهي تمارس أعمالها السحرية، فوعدته بتحقيق رغبته في وقت قريب، ووفت بما وعدته فعلا، فقادته إلى مكان خفي، استطاعا منه أن يلاحظا معا كيف أخذت السيدة مرهما من إحدى العلب ودهنت به جسمها، فتحولت إلى بومة وطارت مبتعدة عن بيتها، عندها تملكه الفضول أكثر، فرغب أن يعيش هو نفسه تجربة التحول، فألح على الخادمة أن تستجيب لرغبته، فلم تمانع في ذلك، وحين أحضرت له المرهم المطلوب، أخطأت في تناول العلبة المناسبة، فكانت نتيجة ذلك أن تحول بعد دهن جسده به إلى حمار، وراح يشاهد نفسه كيف أخذت تبرز في جسمه كل أعضاء الحمار وكيف أخذ يتصف بجميع صفاته الظاهرة باستثناء عقله، الذي ظل عقل إنسان، فوقع في مأزق حقيقي، غير أن الخادمة وعدته بأنها ستحضر له في الصباح التالي باقة من الورد ليأكل منها، ويستعيد بذلك شكله الإنساني، لكن لسوء حظه، هاجم اللصوص البيت في الليلة نفسها، فحملوا المسروقات عليه وعلى زميليه، وقادوه تحت الضربات الكثيرة الموجعة إلى مغارتهم في أحد الجبال، وكانت تقوم على خدمتهم امرأة عجوز، وفي المغارة عاش حدثا آخر مروعا، وهو أن اللصوص أحضروا معهم فتاة رائعة الجمال، كانوا قد اختطفوها يوم عرسها لابتزاز أموال أبيها، فراحت تبكي بكاء مرا تواصل طويلا ولم تسكت إلا عندما هددتها العجوز، فراحت حينئذ تروي لها حكاية لتسليتها، هي حكاية آمور وبسيشة، أو الحب والنفس...

المحاضرة الثالثة

وعندما عزما على الفرار، امتطته ففر بها، لكن اللصوص لحقوا بهما، وأعادوهما، وكان من الممكن أن يعاقبوهما عقابا شديدا، لو لم يحضر شاب إلى مغارة اللصوص، ادعى أن له تجارب كثيرة في ميدان اللصوصية، واقترح أن يكون رئيسهم، فوافقوا على ذلك، ولم يكن هذا الشاب في واقع الأمر إلا خطيب الفتاة المختطفة، فأسكر اللصوص، ثم قيدهم وفرّ بخطيبته بعد أن أركبها فوق ظهر الحمار، حاولت الفتاة بعد نجاتها أن ترد للحمار جميله، فطلبت من والديها العناية به، وبعد ذلك أمرا بتسليمه إلى رئيس الإسطبل لإرساله إلى المرعى مع الخيول، لكن ما إن وصل الحمار إلى المرعى، حتى وجد معاناة جديدة في انتظاره، فقد استخدم في إدارة الرّحى، وفرض عليه حمل الحطب من الجبل إلى السهل، ولقي معاملة قاسية من الغلام الذي يسوقه، كان عليه ذات يوم أن يحمل الحطب من جديد، وإذا بدب يظهر أمامه ويعترض طريقه، فخاف منه وهرب، لكن الخدم لحقوا به وأعادوه إلى رئيسهم، لتبدأ مرحلة جديدة من حياة لوكيوس بعد موت الفتاة، فقد سرقه رئيس الإسطبل وفرّ به، وبعد مغامرات أخرى وقع في يد مجموعة من رهبان الآلهة إيزيس، فكان عليه أن يحمل تماثلهم أثناء تنقلهم، وكانت له معهم تجارب مريرة أيضا، وناله منهم العذاب أكثر من مرة، ولم يسلم من سطوتهم إلا بعد أن اتُّهم الرهبان بسرقة قدح ذهبي وسُجنوا، وأصبح له سيد آخر، فقد أشتراه طحان واستخدمه في إدارة حجر الرحى، وكانت زوجته تكره الحمار، وانتقلت ملكيته بعد موت الطحان إلى بستاني، فعانى عنده الجوع والبرد، ومنه انتقلت ملكيته إلى جندي، ثم إلى أخوين يعملان حلاويين وطاهيين عن أحد الأغنياء، فبدأت مرحلة رائعة بالنسبة إليه، إذ صار يأكل بشكل كافي من بقايا الأطعمة التي كان الأَخَوان يحضرانها من بيت سيدهما، غير أن تناوله لهذه الأطعمة سرعان ما تحوّل إلى نزاع بين الأخوين، إذْ اتهم أحدهما الآخر بأكلها دون علمه، ثم اكتشفا السر، وحدَّثا سيدهما عن ذلك، فأبدى السيد اهتماما كبيرا بذوق الحمار واشتراه منهما، وقدمه لعتيق له للعناية به، وعلمه هذا ألعابا مختلفة نالت إعجاب الخاص والعام، وأخذ يؤجره لمن يرغب في خدماته المتنوعة، من ذلك أن صاحبه قرر تقديمه في عمل مخز على المسرح، لكنه أنقذ نفسه من تلك المهزلة بالفرار منه، وأخذ التعب منه فنام حيثما اتفق له، وحين استيقظ في منتصف الليل وجد نفسه على الشاطئ، فأغطس رأسه في البحر سبع مرات وتضرع إلى ملكة السماء أن تحرره من هيأة الحيوان، وعندما عاوده النوم ظهرت له الآلهة إيزيس في حلمه، وأخبرته أنها استجابت لدعائه، وطلبت منه أن يأكل من الورد الذي يحمله الكاهن، وما إن وصل الموكب العظيم لتمجيد الآلهة، حتى لمح لوكيوس الكاهن وهو يحمل إكليلا من الورد، فأسرع إليه وأكل منه، فاستعاد في الحين هيأته البشرية...

المحاضرة الرابعة

نشأة الرواية الجزائرية

للرواية الجزائرية جذور مشتركة مع الرواية العربية والإسلامية كصيغ القصص القرآني والسيرة النبوية ومقامات الهمذاني والحريري والرسائل والرحالات..، وقد كان أول عمل في الأدب الجزائري الحديث ينحو نحوا روائيا هو (حكاية العشاق في الحب والاشتياق) لصاحبه محمد بن إبراهيم والمعروف بالأمير مصطفى سنة 1847 أو 1845، تبعته محاولات أخرى في شكل رحلات ذات طابع قصصي إلى نهاية القرن التاسع عشر، وفي العشرينيات من القرن العشرين ظهرت نصوص أخرى كان أصحابها يتحسسون مسالك النوع الروائي دون أن يمتلكوا القدر الكافي من الوعي النظري بشروط ممارسته مثلما تجسده قصة (غادة أم القرى) سنة 1947 لـ أحمد رضا حوحو، التي يرى بعض الدارسين أنها تحمل بعض مواصفات الرواية إلا أنها غير مكتملة فنيا، مما يجعلها تبقى مندرجة ضمن إطار القصة المتطورة، وقصة (الطالب المنكوب) سنة 1951 لـ عبد المجيد الشافعي، (صوت الغرام) سنة 1967 لـ محمد منيع وغيرها من المحاولات التي مهدت للبداية الفعلية للرواية الفنية التي يمكن أن يؤرَّخ في ضوئها لزمن تأسيس الرواية في الأدب الجزائري المكتوب بالعربية تحديدا، والتي اقترنت بظهور نص (ريح الجنوب) سنة 1971 لـ عبد الحميد بن هدوقة...

لقد سايرت الرواية الجزائرية الواقع، و نقلت مختلف التغييرات التي طرأت على المجتمع بحكم الظروف والعوامل التي أسهمت في إحداث هذا التغيير، ومن الملاحظ أن الرواية الجزائرية قد صُبِغت بصبغة ثورية، خاصة الثورة ضد الاستعمار، كما سايرت النظام الاشتراكي وهذا ما نجده في عقد السبعينيات بشكل أساسي، وفي رواية الثمانينيات التي سعت لتحقيق الحداثة والتجديد في التجربة الروائية، وتجاوز ما هو سائد في السرد الروائي السبعيني، لتدخل الرواية في ما بعد مرحلةً جديدة فيها ثورة ونضال وانهزام، وقد مثلتها رواية التسعينيات، إذ انطلق الكاتب من الواقع الذي عاشه وعايشه في زمن الأزمة فاصطُلح عليه بأدب الأزمة أو أدب المحنة...

المحاضرة الخامسة

الرواية الجزائرية في فترة السبعينيات:

لقد سبق وأن عرفنا أن مرحلة السبعينيات كانت المرحلة الفعلية لظهور راوية فنية ناضجة، وذلك من خلال أعمال عبد الحميد بن هدوقة في (ريح الجنوب)، و(ما لا تذروه الرياح) لـ (محمد عرعار)، و(اللاز والزلزال) لطاهر وطار، (دماء ودموع ونار ونور) لعبد الملك مرتاض، وبظهور هذه الأعمال أمكننا الحديث عن تجربة روائية جزائرية جديدة متقدمة، إذ أن العقد الذي تلا الاستقلال مكّن الجزائر من الانفتاح الحر على اللغة العربية، وجعل الروائيين المعربين يلجئون إلى الكتابة الروائية للتعبير عن تضاريس الواقع بكل تفاصيله وتعقيداته، سواء أكان ذلك بالرجوع إلى فترة الثورة المسلحة، أو الغوص في الحياة المعيشية الجديدة، التي تجلّت ملامحها من خلال التغيُّرات الجديدة التي طرأت علي الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية، إنّ من سمات الرواية في هذه الفترة الشجاعة الطرح والمغامرة الفنية، وهذا راجع إلى الحرية التي اكتسبها الكاتب بفعل الواقع السياسي الجديد، الذّي كان مناقضا للواقع السياسي الاستعماري قبل هذه الفترة، على اعتبار أن الكتابة فنٌّ لا يزدهر إلا في ظل الحرية والانفتاح، فالقمع والاضطهاد قد يدفع الكاتب إلى تبني مواقف ما كان ليتبناها لو أن الإطار السياسي كان مختلفا، إن الطابع السياسوي الذي انطبعت به النصوص الروائية في هذه الفترة لا يمنع الطرح الجذري الذي اتسمت به هذه النصوص الروائية والقائم على محاكمة التاريخ أو الواقع الراهن بلغة فنية جديدة، وقد جاء هذا الطابع كحتمية لتركية ثقافة الرواد الأوائل الذين كان لهم فضل السبق في تأسيس الرواية الجزائرية الحديثة، وكل هذا تأتى لهم من خلال انخراطهم في السلك السياسي ومعايشتهم للحدث والمساهمة فيه، وقد منح هذا الرصيد من التجربة السياسية هؤلاء الرواد بُعدا سياسيا للرواية التي نشأت بين أيديهم، فابن هدوقة مثلا أسهم برواياته في إثراء الحركة الروائية من حيث مواجهة الحياة ومشاكلها، والتعبير في قضايا المجتمع وطموحاته، ونشر الوعي السياسي، وتدعيم آمال الطبقة الكادحة، وخاصة من خلال رواية(ريح الجنوب) التي كتبها في فترة الحديث عن الثورة الزراعية سنة 1971، مساندة للخطاب السياسي الذي كان يلوّح بآمال واسعة لفكّ العزلة عن الريف الجزائري والخروج به إلى حياة أكثر تقدما وازدهارا، ورفع البؤس والشقاء عن الفلاح، ومناهضة كلّ أشكال الاستغلال عن الإنسان، وقد تكرس هذا الخطاب السياسي في قانون الثورة الزراعية الصادر رسميا في 08 نوفمبر 1971، هذا هو الجو الذي تنفست فيه(ريح الجنوب)، حيث جرت أحداثها في الريف، بمنطقة تقترب من الهضاب العليا بين جنوب الوطن وشماله، وهي حكاية بسيطة نواتها أبٌ إقطاعي يُدعى ابن القاضي يريد تزويج

ابنته نفيسة لرئيس البلدية بغرض المحافظة على أملاكه من المشروع الجديد والمتمثل في الثورة الزراعية، إلا أن ابنته رفضت ذلك، لقد ربط ابن هدوقة في هذه الرواية حرية المرأة بالتخلص من الإقطاعية في شكل معادلة متكاملة لا ينجح المشروع الجديد إلا بتحقق طرفيها، فلا يمكن أن تتحرر المرأة والأرض بدون تغيير العلاقات الاجتماعية السائدة، فالإقطاع لا يتمثل في الماديات وحدها بل هو قبل كل شيء مواقف معينة...وفي رواية (نهاية الأمس) أعاد ابن هدوقة طرح قضية الإقطاعية ووقوفها في وجه المشروع الإصلاحي، إذ صوّر لنا الروائي الصراع القائم بين البشير النموذج الإصلاحي وابن صخري النموذج الإقطاعي، فهو صراع بين نزعتين تمثل إحداهما الإقطاع وحب الاستغلال والرغبة في إبقاء ما كان، وتمثل الأخرى وهي نزعة البشير والمتقدمين أمثاله العمل من أجل الصالح العام، ورفض كل أنواع الاستغلال والهيمنة والرغبة المؤكدة في إصلاح الأوضاع الاجتماعية الفاسدة في الريف الجزائري...

المحاضرة السادسة

أمّا الطاهر و طار، فقد جاءت أعماله لتؤرخ لكل التغييرات والتطورات الحاصلة في المجتمع الجزائري منذ الثورة المسلحة إلى غاية الاستقلال، وقد كان للإغراءات الإيديولوجية والفنية التي تميزت بها مدرسة الواقعية الاشتراكية دورٌ بارز في جعْل أعمال وطار تتسم بنوع من التلقائية والرؤية الشمولية، كما جعلته قادرا على إدراك تلك العلاقات الجدلية بين الفرد وأفكاره وأفعاله والحياة بكل صراعاتها، حيث نجده يعود في رواية (اللاز) إلى سنوات الثورة التحريرية، مصوّرا لنا مرحلة من مراحلها، حيث حاول فيها البحث عن بذور الأسباب التي عرقلت مسيرة الثورة بعد الاستقلال، مستغلا شخصيات الرواية في دفع الأحداث وتقديم رؤاه الاجتماعية والنضالية والثورية والإيديولوجية، فقد حفلت بالنقد للأوضاع والأفكار والشخصيات والمواقف التي يراها الكاتب من وجهة نظره غير سوية، وتعد شخصية (اللاز) الشخصية المحورية التي تتطور بتطور أحداث الرواية، حيث تتحول من شخصية عادية إلى رمز للشعب الجزائري بأكمله، فكما وجد (اللاز) ضالته في عثوره على أبيه زيدان الممثل الأساسي للإيديولوجية الشيوعية التي يزعم إعجاب الشعب الجزائري وتعلقه بها، كما وجد الشعب الجزائري ضالته في الفاتح من نوفمبر 1954، بعد أن عاش أكثر من قرن وثلث القرن يُنسب إلى أصل غير أصله، إن الربط بين (اللاز) الفتى الشقي اللقيط الذي يحمل كل الشرور ولا يعرف مَنْ أبوه، وبين الشعب الجزائري الأصيل الذي لم ينسَ أصله وعقيدته، هو ربط لا يتماشى مع الواقع، ولا يمكن قبوله من وجهة النظر التاريخية والعقائدية للشعب الجزائري، ومع ذلك يبقى الموقف مقبولا من الناحية الفنية، ذلك أن وطار كما يقول في بداية

روايته هذه:"أنني لست مؤرخا ولا يعنى أبدا أني أقدمت على عمل يمدّ بصلة كبيرة إلى التاريخ، رغم أن بعض الأحداث المروية وقعت أو وقع ما يشبهها، إنني قصاص وقفت في زاوية معينة لألقي نظرة بوسيلتي الخاصة على حقبة من حقب ثورتنا..."وإذا كانت راوية (اللاز) قد صورت لمرحلة من مراحل الثورة، وذلك من خلال رؤية إيديولوجية محددة، فكانت بمثابة الأرضية الفكرية للكاتب، فإن روايته الأخرى (الزلزال)، جاءت لتحقق هذه الرؤية الإيديولوجية في الواقع الاجتماعي والاقتصادي كحل شرعي لمخلفات الثورة التحريرية، فقد صور الكاتب في روايته هذه حكاية إقطاعيٍّ جاء من العاصمة ليحمي أملاكه من شبح الثورة الزراعية، كما تصوّر الرواية جانبا كبيرا من تغيير الحياة، حيث جسدت واقع المدينة ومشاكلها الناتجة عن الهجرة الداخلية، وكانت مدينة قسنطينة بجسورها مسرحا لأحداث هذه الرواية..

هذا باختصار بعض المضامين للنصوص الروائية التي ظهرت خلال هذه الفترة والتي كانت كلّها تسير في فلك الإيديولوجية الاشتراكية المتبناة من قِبَل السلطة الحاكمة وقتئذ من أجل بناء الدولة الجزائرية الجديدة بعد أن أحرزت الاستقلال، و لما بدأت مرحلة الدولة الجزائرية الجديدة ساهمت كل المؤسسات في رفع هذا الصرح، وساهمت الرواية كجسر أدبي ومؤسسة اجتماعية أداتها اللغة في بناء مشروع الدولة بمنظورها الخاص وأدواتها التعبيرية المعروفة...

المحاضرة السابعة

الرواية الجزائرية في الثمانيات:

كانت التجربة الروائية للكتاب الجزائريين في هذه الفترة نتيجة للتحولات التي حدثت في مجتمع الاستقلال، حيث مثَّل هذا الجيل اتجاها تجديديا حديثا في هذا النمط الأدبي الجزائري، ومن التجارب الروائية في هذه الفترة نذكر روايات واسيني الأعرج (وقع الأحذية الخشنة) سنة 1981، و(أوجاع رجل غامر صوب البحر) سنة 1983، وراوية (نوار اللوز) أو(تغريبة صالح بن عامر الزوفري) سنة 1982، التي يستثمر فيهما التناص مع تغريبة بني هلال وكتاب المقريزي (إغاثة الأمة لكشف الغمة)،كما كتب الحبيب السايح رواية (زمن النمرود) سنة 1985، ومن الأعمال الروائية الجزائرية في هذه الفترة أيضا أعمال الروائي جيلالي خلاص رواية (رائحة الكلب) سنة 1985، و(حمائم الشفق) سنة 1988، كما كتب أيضا مرزاق بقطاش روايته (عزوز الكابران) سنة 1989، الذي يقف فيها شيخ الجامع وهو شخصية من شخصيات الرواية ويعد رمزا للتيار السلفي المتضامن مع النزعة الوطنية، ممثلا للفكرة الوطنية الموحدة في الجوانب الإيديولوجية المتباينة، في هذه الرواية يلتقي المعلم وهو من

الشخصيات الأساسية بهذا الشيخ في الزنزانة وقت صلاة الظهر حيث يؤنب شيخ الجامع هذا المعلم و يخبره بأنه غير راض عليه، لأنه في رأيه لا يعلم الأطفال ما ينبغي تعليمه وهو أن يعلمهم الحقيقة وكذا التمرد على الحاكم عزوز الكابران، إن لقاء المعلم بشيخ الجامع في الزنزانة وحوارهما حول ضرورة التمرد على عزوز الكابران هذا يشير إلى التضامن الوطني القومي مع السلفي من أجل خدمة القضية الوطنية، ولكن الملاحظ في هذه الرواية أن شرعية السلطة تقوم على العنف باعتباره الوسيلة الأساسية لتحقيق المطلب السياسي...وقد أخرج رشيد بوجدرة عدة أعمال روائية نذكر من بينها راوية (التفكك)سنة 1982، و(ليليات امرأة آرق) سنة 1985، و(معركة الزقاق)سنة 1986...كما يتابع الطاهر وطار في هذه الفترة كتابة جزئه الثاني من رواية (اللاز) وهي تجربة (العشق و الموت في زمن الحراشي) سنة 1980، هي امتداد لـ (اللاز) تحكي عن جزائر ما بعد الاستقلال وتتعرض للصراع بين إيديولوجيتين، إسلامية متشددة متمثلة في شخصية مصطفى، والإيديولوجية الاشتراكية الشيوعية المتمثلة بشخصية جميلة، وتشترك الروايتان في أن النضال ضد المستعمر انتهى وحلّ محله النضال ضد التخلف، الذي يرسم فيه مآل الثورة بعد الاستقلال، عبر الاصطفاف بين الحركة الطلابية وممن يتوسلون الدين ليجهضوا الثورة الزراعية، ويجهزوا على التحول الاشتراكي....

وغير هذا من التجارب الروائية ومنظورات ورؤى أصحابها لمسالك التجديد ومواقفهم المتعددة في التعامل مع قضايا وإشكاليات الواقع الجزائري في الثمانينات، إذ رأى بعضهم في التأصيل السبيل الأمثل لتحقيق الحداثة والتجديد في تجربته الروائية، مثلما نجد ذلك عند واسيني الأعرج ومحمد مفلاح والطاهر وطار، أمّا البعض الآخر فقد رأى في التجديد عن طريق الاشتغال المكثف على اللغة بتحويلها إلى فضاء إبداع وتعقيد السرد السبيل الأمثل القادر على تحقيق المغايرة، واكتساب تجاربهم سمات الجدة وتجاوز ما هو سائد في السرد الروائي السابق، مثلما تجسد في تجربة رشيد بوجدرة وجيلالي خلاص ولحبيب السايح وغيرهم...

المحاضرة الثامنة

إن ما يلفت النظر في هذا المنحى هو هذا السعي الجاد من رواد الرواية العربية الجزائرية إلى الانخراط ضمن التوجه الجديد في الممارسة الروائية، والاستفادة من تقنيات الرواية الجديدة سواء العربية منها أم العالمية، حيث نشر عبد الحميد بن هدوقة روايته (الجازية والدراويش) سنة 1983، التي مثلت إضافة نوعية لمسيرته في عالمه الروائي، حيث استثمر فيها سيرة بني هلال ليتناول من خلالها إشكاليات الثورة زمن الاستقلال، وما يتم عنها من صراعات وتناقضات، وتشخيص إخفاق العديد من اختياراتها وانحراف ممارستها عن الأسس والمبادئ الأصلية

التي تبنتها زمن حرب التحرير، وهي النقدية السياسية التي بلور معالمها رائد الرواية الجزائرية الطاهر وطار في روايته (الحوات والقصر) سنة 1980، و(تجربة في العشق) سنة 1988، حيث كشف فيهما عن سمعة السلطة القمعية والوصولية والانتهازية التي تحكم جزائر الاستقلال، وهذا في صياغة جزئية لم تتهيب من المحظور السياسي...

ومع كل هذه الأعمال الروائية التي ترمي إلى إحداث التجديد والخروج عن المألوف السردي، شهد عقد الثمانينات ظهور عدد مهم من الروايات ذات القيمة المحدودة فكريا وجماليا بسبب عدم امتلاك أصحابها عناصر الوعي والإدراك الضرورية لفهم طبيعة تحولات المجتمع الجزائري، وخلفيات ما يعيشه من صراعات وتناقضات زمن الاستقلال، إضافة إلى عدم توفرهم على شروط الوعي النظري للممارسة الروائية، فانزاحت بذلك النصوص الروائية من اللغة إلى الإيديولوجيا، فالأصل في اهتمامات الكاتب في عمله الروائي أن تكون اللغة من أولى اهتماماته أولا، ثم القضايا الأخرى ثانيا، ولكن المطّلع على النصوص الروائية في هذه الفترة يلاحظ مدى انزياحها عن اللغة وانغماسها في الهم الاجتماعي، فأصبح المضمون الاجتماعي مسيطرا على النص الأدبي، وقد أدت سيطرة المضمون على اللغة الفنية إلى فقدان الشحنة الشعرية التي تسمو بالعمل الروائي إلى درجة الجمالية الأدبية، ولهذا جاءت نصوصهم الروائية باهتة على صعيد الكتابة وساذجة في التعبير عن الموقف من واقع الجزائر في السبعينات والثمانينات، وما ميزه من مناظر وصور تأزم متأنية من تهافت أشكال الممارسة السياسية للسلطة الحاكمة...إنّ ما نلاحظه على الكثير من هذه النصوص هو احتفائها بموضوع الثورة وتمجيدها، وقد تحقق الاستقلال من منظور ذاتي ضخم لهذه الثورة وعظمتها إلى حد اعتبارها أسطورة، وتنزيه الرجال الذين قاموا بها من كل المذلات والأخطاء إلى حد العصمة، وهذا ما تعكسه روايات محمد مفلاح: (الانفجار) 1984، و(هموم الزمن الفلاقي) 1985، (زمن العشق والأخطار) 1988، و(خيرة والجبال) 1988.. و(رواية الألواح تحترق)سنة 1982 لمحمد رتيلي، و(الضحية) 1984 لحيدوسي رابح، وأخيرا (تتلألأ الشمس) 1989 لمحمد مرتاض، وغيرها من النصوص الروائية التي أسهمت في تكريس إيديولوجية السلطة المهيمنة، وهو الموقف الذي لم تلتزم به الكثير من التجارب الروائية التي تناولت هي الأخرى ثورة التحرير قبل الاستقلال وبعده، ومن منظور نقدي وهو ما عبرت عنه تجارب طاهر وطار وواسيني الأعرج و رشيد بوجدرة وجيلالي خلاص ولحبيب السايح وغيرهم من كتاب هذا الجيل الجديد الذي لا يتسع الوقت للتفصيل في هذا الموضوع...

سؤال للبحث: من أجل ترسيخ الفهم أكثر، ابحث عن تجارب أخرى من تيار النقدية السياسية، والتأصيل الواقعي، ومؤيدي تيار الاشتغال على اللغة وتكثيف السرد، لتحقيق الجدة...

المحاضرة التاسعة

الرواية الجزائرية في التسعينات:

لقد كانت فترة التسعينات حافلة بالروايات التي تحاول أن تأسس لنص روائي يبحث عن تميز إبداعي مرتبط ارتباطا عضويا بتميز المرحلة التاريخية التي أنتجته وبالواقع الاجتماعي الذي شكل الأرضية التي استطاع من خلالها الروائيون أن يستلهموا الأحداث والشخصيات من أجل قراءة الحادثة التاريخية قراءة مرهونة بالظرف التاريخي الصعب الذي مروا به، وما تردَّدَ في روايات التسعينات تصوير وضعية المثقف الذي وجد نفسه سجينا بين نار السلطة وجحيم الإرهاب، وسواء كان أستاذا أم كاتبا أم صحفيا أم رساما أم موظفا، فإنهم يشتركون جميعا في المطاردة والتخفي وهم يشعرون دوما أن الموت يلاحقهم، وقد ظلت رواية فترة التسعينيات وما بعدها مشدودة لتلك الرؤية الإيديولوجية، ويرجع ذلك للأوضاع المأسوية التي مرَّ بها الوطن، فكل النصوص الروائية التي ظهرت في فترة المحنة، حاولت أن تعكس ما يتعرض له المجتمع في قالب يهيمن عليه البعد الإيديولوجي، وهذا ما يؤكد الهيمنة الإيديولوجية على الخطاب الروائي الجزائري، فبعد الأزمة التي عصفت بالمجتمع الجزائري خلال تلك السنوات، والتي مست كل طبقات المجتمع، أخذت الرواية منعرجا آخر، عالج موضوع الأزمة وآثارها، فاتخذت راوية الأزمة من المأساة الجزائرية مدارا لها، منها تتولد أسئلة متنها الحكائي، وفي أحضانها تتشكل مختلف عناصر سردها.. إنّ الإرهاب ليس حدثا بسيطا في حياة المجتمع، وقد لا يقاس بالمدة التي يستغرقها، ولا بعدد الجرائم التي يقترفها، بل بفظاعتها ودرجة وحشيتها والآثار المادية والمعنوية التي تفرزها، وعندما يتعلق الأمر بالجزائر فإن الإرهاب تُقاس خطورته بتلك المقاييس جميعا، إذْ استغرق مدة غير قصيرة، لكن انشغال الناس به في سعيهم اليومي وأرقهم الليلي لم يمنع بعض الكتاب من تسجيله، بل إن ثقله هو الذي يفرض على الكاتب حالة من الحضور يصعب عليه أن يتنصل منها، فموضوع العنف المعروف إعلاميا بالإرهاب، كان مدار معظم الأعمال الروائية التسعينية، إلا أن هذا العنف، لم يكن الطابع الوحيد الذي طبع في السنوات الماضية، إذ لم تكن عشرية الأزمة الأمنية فقط، بل كذلك كانت عشرية التحول نحو اقتصاد السوق وتسريح العمال وإلغاء انتخابات 1992، مما شجع على ظهور تكتلات وتوجهات وتيارات متصارعة، وبهذا ظهرت رواية المعارضة كبديل عن رواية السلطة التي فقدت هيبتها بعد أحداث 08 أكتوبر 1988، وبذلك فسحت المجال لرواية المعارضة بعد توفر مناخ الحرية الذي أفرزه دخول الجزائر مرحلة اختيارات جديدة، سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي، فزالت سياسة الحزب الواحد، وجاءت التعددية الحزبية، وقد رافق هذا المعطى السياسي اعتبار حرية

التعبير في الدستور حقا من حقوق المواطنة، وبهذا أصبح النص الروائي ملزما بتجديد موقفه مما يحدث، وكما كان الروائي الصوت المعبر عن هموم الجماعة والصادر عن عمقها، كان أول ردود فعله اتجاه ما يحدث هو الوعي بالمأساة الوطنية، فظهرت روايات تعاطت موضوع العنف السياسي وآثاره اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، حيث يلتقي الطاهر وطار في (الشمعة والدهاليز) مع واسيني الأعرج في (سيدة المقام) في البحث عن جذور الأزمة، وفضح الممارسات التي تبعتها، كما جسدها آخرون كإبراهيم سعدي في (فتاوى زمن الموت) ومحمد ساري في (الورم)، وبشير مفتي في (المراسيم والجنائز) و(شاهد العتمة)، فمثلا في (سيدة المقام) يصوِّر واسيني الأعرج معاناة مريم التي ترمز للمرأة الجزائرية الصامدة، ويُرجع سبب هذه المعاناة إلى النظام والتيار المظلم المعادي لكل مظاهر التقدم والتحضر، إنّ الإرهاب في (سيدة المقام) ليس حديثا عابرا، ولا مجرد خبر يُقرأ أو يصنع، بل إنّه أحد مكونات المدينة الروائية، فهو عنصر حاضر فيها ولو كان كعنصر هدم لا كعنصر بناء، ولكنّه لا يكتفي بتسجيل حضورها، وإنما يعطيها أيضا بعدها التاريخي والإيديولوجي والسياسي من غير أن يفرط فيما تقتضيه الكتابة الأدبية من خصوصية فنية...

المحاضرة العاشرة

وتُصوِّر لنا فضيلة فاروق حياة صحافية جزائرية في شرق البلاد من خلال روايتها (تاء الخجل)، وتعني تاء الأنثى التي غالبا ما تجعلها تعيش في خجل من كونها أنثى، فالصحافية تحقق في عملية انتحار فتاة لتصل إلى حقيقة أنها قفزت من أحد جسور قسنطينة تلبية لرغبة والدها، إذْ أنها اغتُصبت من قِبَل الأيادي الآثمة، وفي الوقت الذي تُصدَم فيه هذه الصحافية تبدأ الاغتصابات الجماعية في جزائر التسعينيات، فتصل الصدمة ذروتها فتضطر أن تغادر الوطن الجريح، لأن الوضع فيه خانق، ومن خلال رحلتها مع المغتصَبات تتعاطف مع إحداهن لأنها من نفس منطقتها وتعيش معها أيام الاحتضار، فالرواية إذن هي شهادة على واقع، وشهادة على حضور ذات المثقف المعذبة، فهي تجسد في أحد أوجهها حضور المثقف ومحنته في رواية الأزمة إنّها ثقافة الوطن المجروح...

إنّ نهاية الرواية لا تردُّ الإرهاب إلى جهة معينة، ولا تردها خاصة إلى الحركة الأصولية كما هو معروف، بل إن إضفاء شمعة المثقف الوطني يعود إلى عدة أطراف، وكل هذه الأطراف اتفقت على شيء واحد هو العنف، و في رواية (تيميمون) يحاول بوجدرة أن يرصد لنا من عمق الصحراء الشاسعة مسلسل العنف والاغتيالات إبان الأزمة، وإن كان وسط الصحراء بعيدا نوعا ما عن صخب الإرهاب وما يحدثه من رعب، ولكن أين له أن يبتعد، وأخبار الموت تصله مسموعة ومكتوبة من خلال المذياع والجريدة، فيرسم لنا حرف المدارس واغتيال

المثقفين والأجانب وكذا السواح وذلك من خلال الأخبار الثمانية التي تتخلل الرواية، والتي نعرف من خلالها أنّ الاغتيالات تصوَّبُ بدقة نحو المثقفين والفنانين، ولكنّها نضال أيضا للعاديين، إنّ أثر الإرهاب في (تيميمون) ليس محركا للتاريخ، بل هو ظاهرة طارئة على التاريخ، وحَدثٌ عارض يُعيق الحركة كما يقطع حبل التسلسل في القراءة، وسيبقى محطة سوداء في طريق التاريخ مثلما تظهر الأخبار بقعا سوداء في جسد الرواية، إلاّ أنّها تحول دون قراءة الرواية كما لم تحُلْ دون كتابتها، فالعقبات لا توقف مجرى التاريخ وإن بقيت وشما في جسده...

إنّ ظاهرة الإرهاب التي ميزت الكتابة الروائية في عقد التسعينات بدأت الإشارة إليها منذ السبعينات، وجاءت بشكل صريح مع الطاهر وطار في رواية (العشق والموت في زمن الحراشي)، إذ تصور لنا الرواية الصراع بين حركة الإخوان المسلمين وبين المتطوعين لصالح الثورة الزراعية...

المحاضرة الحادية عشرة

الرواية الجزائرية ما بعد الألفية الثالثة (أي من 2000 إلى 2020):

تعدُّ هذه المرحلة من أثرى المراحل في تاريخ الكتابة الروائية الجزائرية نظرا للعدد الهائل من الروايات والروائيين الذين ظهروا في هذه الفترة، حيث يذكر الباحث الجزائري شريف بموسى عبد القادر أنّ عدد الروايات الجزائرية ما بين سنة 2000 وسنة 2015 يتجاوز 433 رواية، وعدد الروائيين يفوق المائتين (206 روائي وروائية)، وقال موقع (أبوليوس) المهتم بشؤون الرواية والكتَّاب والمترجمين الجزائريين على صفحته بموقع التواصل الاجتماعي (فايسبوك)، إنّ الروايات الصادرة عام 2017 وحدها تقارب 120 رواية، بالعربية والأمازيغية والفرنسية والإنجليزية، ونشر الموقع أغلفة الروايات الصادرة في هذه السنة ومنها روايات (قبلة مميتة) لسميرة موات، (هجرة حارس الحظيرة) لنجم الدين سيدي عثمان و(نوار الملح) و(الجزائر تقرأ) لعبد الغني زهاني، (الحب الأزرق) لغزلان قنوش، و(قديس الأهالي) لنور الدين قدور رافع، و(من أجل الحب للبحر) رواية بالإنجليزية لخيرة بن يعقوب و(التحدي) باللغة الإنجليزية لهند بومدين، و(تغريبة لخضر زرياب) لياسمينة صالح، و(وادي الحناء) لجميلة طلباوي، و(بأي ذنب قتلت) لخولة عجينة و(ثرواتنا) لكوثر عظيمي باللغة الفرنسية، و(للأسف الشديد) المجموعة القصصية الحديثة للكاتب المترجم سعيد بوطاجين، هذا على المستوى الكمي، أما على مستوى المضامين فقد سمحت التحولات الكبرى التي عرفها العالم، وبشكل متسارع، بهيمنة القوى الكبرى على كل المجالات وظهور الرقمنة وتطورها بشكل لافت، أو على مستوى البناء الفني الذي أضحت ملامحه وخصائصه في

متناول الجميع، فعجل ذلك كله بظهور جيل من الروائيين الجزائريين الشباب رجالا ونساء من ذوي الثقافات المختلفة، ومن مختلف المشارب والتوجهات، فتنوعت إبداعاتهم، فمنها ما هو بمستوى يمكن أن يصل إلى القارئ العادي والنخبوي معاً، ومن ذلك نجد رواية (كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك) للروائي الجزائري عمارة لخوص ورواية (دمية النار) لبشير مفتي و(لخضر) لياسمينة صالح الصادرتين في سنة 2010 اللّتن تُعدّان بحق من الروايات الجزائرية التي تطرّقت إلى طابو السياسة بنوع من الجرأة، لم نجد لها أثراً في الروايات الجزائرية الأخرى إلا قليلا، كما نجد تجارب إبداعية أخرى يمكن القول إنها موجهة للنخبة فقط، لأنّ القارئ العادي ليس له نفَسٌ طويل وصبرٌ على الوقوف لدقائق عند فقرات وجمل وكلمات ذات أبعاد رمزية عميقة، كما أنّه لا يتمتع بثقافة موسوعية كالتاريخ والفلسفة وغيرها تمكّنه من سبر أغوارها وقراءة ما بين السطور وفك شفراتها واستخراج رموزها الدينية أو الفلسفية أو السياسية، نجد هذا جلياً في نصوص الروائي سمير قسيمي، خصوصاً روايتيه (هلابيل) الصادرة سنة 2010 ورواية (كتاب الماشاء، هلابيل النسخة الأخيرة) الصادرة سنة 2016 نظراً لطرحهما موضوعاً جديداً جداً وتاريخاً واقعياً ومتخيّلاً غير مسبوق مع أفكار وجودية ذات طرح فلسفي مستحدث...

المحاضرة الثانية عشرة

خاتمة:

إن الأدب الجزائري شأنه شأن الآداب العالمية انعكاس للراهن الحيني، مما يحدث من تحولات وتغيرات في المسارات التي تصنع التجربة وأفق الترقب في مسيرة الدولة الجزائرية، والخطاب الروائي السياسي في الجزائر هو وليد الأفكار السياسية والوطنية، إذ واكبت الرواية الجزائرية جلّ التحولات السياسية الطارئة على المجتمع الجزائري في مراحله المختلفة، فتناولنا الرواية السياسية في الجزائر في فترة السبعينات التي مثلت مرحلة التأسيس الفعلي للرواية الجزائرية، وما اصطبغت به من خصائص ومميزات سواء من ناحية المضمون أو من ناحية الخطاب الفني، مرورا بعقد الثمانينات التي حاولت فيه الرواية العربية الجزائرية الانخراط ضمن التوجه الجديد في الممارسة الروائية والاستفادة من تقنيات الرواية الجديدة، وصولا إلى عقد التسعينيات الذي كان حافلا بمختلف التطورات والأحداث خصوصا في الميدان الأمني والسياسي والاقتصادي، أما المستوى الأدبي فقد تميز بظهور نمط جديد من الكتابة الروائية وهو رواية المحنة أو الأزمة التي خاض فيها العديد من الروائيين الكبار أمثال واسيني الأعرج وأحلام مستغانمي ورشيد بوجدرة والطاهر وطار وبشير مفتي، وحميدة عياشي وعبد الملك مرتاض ومحمد مفلاح ولحبيب السايح وجيلالي خلاص وسعيد بوطاجين ومرزاق بقطاش وغيرهم كثير، ولعلّ الغاية من هذا تكمن في

الكشف عن العنف والإرهاب الذي برز بشكل لافت في التسعينيات، وقد أثّر بوجه أو بآخر على النص الجزائري، ويعنى ذلك أنه ينطوي على متغيرات جديدة في مسار الإبداع الجزائري، وبخاصة في الجنس الروائي الذّي تجسده النصوص الإبداعية الروائية التي نتفق على تسميتها من البداية بأدب المحنة ، التي تجلت فيها المحنة وفرضت حضورها بقوة في الكتابة الأدبية..

إن اللافت للانتباه من جانب وفرة الانتاج الروائي وتنوع موضوعاته وترسيخ فنونه وأشكاله، لم يكتمل ويتأكد إلا خلال العقدين الأخيرين حيث سجلنا زخما إبداعيا غير مسبوق في عدد الأعمال الروائية والروائيين القدامى منهم والمحدثين الذين وضعوا بصمات واضحة حققت بشكل أو بآخر تميز الروائية الجزائرية التي تعكس إلى حدٍّ ما، خصوصية الأمة الجزائرية ومرجعيتها الثقافية والتاريخية والحضارية...

مصادر البحث:

المحاضرات مأخوذة من مقال لشادية بن يحي موسوم بالرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع من الموقع الإلكتروني https://www.diwanalarab.com/ بتصرف بالزيادة والنقصان

يوم السبت 4 مايو 2013

أهم المراجع المعتمدة

بلعلى آمنة: المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف، دار الامل و النشر و التوزيع.

بن قينة عمر: في الأدب الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.

بوديبة إدريس: الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، 2000.

بوشوشة بن جمعة: الرواية العربية الجزائرية، أسلئة الكتابة والصيرورة، دار سحر النشر، 1988.

بوشوشة بن جمعة: سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر، تونس، 2005.

خشاب جلال: إشكالية الهوية في الأدب الجزائري باللغة الفرنسية، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، ملتقى إشكالية الأدب في الجزائر، 2006م.

الخطيب محمد كامل: الرواية والواقع، دار الحداثة، بيروت، 1981.

خمري حسين: فضاء المتخيل، مقاربات في الرواية، منشورات الاختلاف، 2002.

سعدي إبراهيم: الرواية الجزائرية و الراهن الوطني، الخبر الأسبوعي عدد 4، ديسمبر 1999م.

سنقوقة علال: المتخيل والسلطة في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية. منشورات الاختلاف، الجزائر، 2000.

فريحات أحمد: أصوات ثقافية في المغرب العربي، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 1984.

مخلوف عامر: أثر الإرهاب في الرواية، مجلة عالم الفكر، المجلد 22، العدد الأول بسبتمبر، 1999.

مصايف محمد: الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983.